فارس كانت من أضخم الدول سلطاناً ، وأبعدها فى الحكمة أعراقاً ، فلم يصعُب عليه منالها ، كما لم يعسر عليه غَلَب الروم فى الشام ، وهم بمكان من المدنية لايرام . ولست أقول إلاّ أنه لمّا نشأ الاسلام كانت القياصرة فى ضعف وانحلال ، وكان الفُرْس يمزقهم ظلمُ العمّال . فكان ذلك داعياً إلى انتزاع ملكهم ، ولم ينل الاسلامَ اخفاق فى عهد الخلائف الأولين ومع بمكانهم من صلاح الرأى وحكمة السياسة . فلم تُهْزَم للاسلام رايةٌ فى أيامهم ، إلى أن ذهبت الخلافة من بيت علىّ عليه السلام فذهبت سَذاجة الملة ، وانقلب أمر الأمة من الخلافة إلى المُلْك ، كما قال النبى صلى الله عليه وسلم (الخلافة بعدى ثلاثون سنةً ثم تصير مُلْكا عَضُوضاً) ولله فى خلقه شؤون ، وهو يقدّر الليلَ والنهار .

وكان الفراغ من تقييد هذه الرسالة فى أول يوم من رجب من السنة السابعة والخمسين بعد المائة من الهجرة النبوية المشرَّفة على صاحبها أشرف السلام وأزكى التحية .

لقائى ولىَّ العهد وحظوتى لديه

هذا كتاب إليك أبدأ فيه بذكر لقائى ولىَّ العهد ، فإنا لفى بعض الأيام ، ونحن جلوس إلى فقيه الاسلام ، إذ دخل علينا البيتَ خادم من خدم الخليفة فتخوَّف الفقيه من شىء لم أدر ماهو ، وكذلك الناسُ يغشاهم الخوف والانقباض كلما دخل عليهم خادم الخليفة على غير موعِد ، [1] فقال له أبو يوسف سبق وهمى إلى أنك تطلبنى لأمر جَلَل ، قال أَجَلْ إن الأمير

(١) هو أمر معروف فى الحكايات وكتب التاريخ

يدعوك الساعةَ إليه لأمر أقلقه الليلَ كلَّه ، ولم يجرِ فى خاطر أحد من العلماء التصرفُ فى وجه يكون به كشفُ الغمة وتحقيقُ المسئول ، فدعا خالدَ بن برمك إليه فقال له عليك بتلاميذ أبى حنيفة وما فيهم أحفظُ لعلمه من أبى يوسف[1]

فلما سمع ذلك طابت نفسه وذهب ما كان يجده من الخوف ، ولم يلبث أن استوضح هذا الخادم الخبرَ فأعلمه أنّ الأمير حنِق على الخيزُران أم أولاده ليلا ، وقال لها فى سَوْرة الغضب أنتِ طالق ثلاثاً إنْ بتُّ الليلةَ فى مملكة أبى ، فلما سكن غضبه ووجدها بَراءً من التُّهَمة راعه أمرُ الطلاق فاستدعى الأعيانَ والفقهاء فلم يكن عندهم ما يرجوه من الافتاء الذى يطيب به نفساً ، ففكّر أبو يوسف بُرْهة فلم يفتح الله عليه بشىء .

وكنت فى ذلك الوقت أجيل الفكرةَ فى أمر الخيزُران وأذكر مآثرها فى الدولة وذلك المسجدَ الذى زينت به الزَّوْراء ، فوقع فى نفسى ما يكشف هذه المهمة ، فقلت لأبى يوسف إنّ المساجدَ بُيوتُ عبادةِ الله تعالى ، ولا تدخل فى مُلْك أحد ، فلو بات الأمير فيها الليلةَ ما حسبتُه يبيت فى مملكة أبيه ، فما كدت أنتهى من كلامى حتى كاد ينخلع من ثيابه لشدة الفرح ، وهو يقول لقد ظننتُ واللهِ أن إعمال الفكرة فى مثل هذا التخلص الجميل . جَهْدٌ من غير تحصيل . وعناء للنفس ليس له من سبيل . فأما إذ ابتدعت هذا الرأى الميمونَ فعلىّ عهد الله لاذكرنّك عند الأمير ليقرِّبَك إليه بما أنت أهله من الخير ، ثم خرج وأنا أحسَب للأمير مَسَرّة عظيمة مما رزقنى الحظُّ استنباطه ليكون فى حِلٍّ من يمينه ومَبَرَّةٍ له من قَسَمه .

---

(١) الشريشى ٢ : ٣٦٧

فلم تكن إلاّ ساعةٌ حتى عاد إلىّ نُصَيْرٌ ذلك الحاجبُ قائلا [١] أجب الأمير، فقمتُ لساعتى أمتثل الأمر، فلما صرت فى باب الدار وجدت جماعة من الغِلْمان قد أعدّوا لى بغلة فارهة من مطايا الأمير مجلَّلةً بالديباج، عليها حِلْيـة من الفضة، فركبت وسار الغلمان بين يدىّ حتى وصلنا إلى دور الخلافة، وقد كان أخبرنى نُصَيْر عما جرى بين الأمير وأبى يوسف من الحديث، وأنه لمّا مَثَل بين يديه كاد يعدِل عن استفتائه ظنًا منه أنْ لا يكونُ من فتواه جَدْوَى، « والخلفاء وأولادُهم يبدءون الناسَ بالكلام وليس للناس أن يفتتحوه معهم »، [٢] فلما استطلعه رأيَه فيما أهمّه من الأمر وذكر له الرأىَ الذى تقدّمتُ به إليه غلب عليه السرورُ حتّى ما كاد يستقر به المجلس من القيام والقعود، ثم سأله أمن معقوله ذلك أم من منقوله؟ فقال له أبو يوسف لا واللهِ وإنما قائلُ هذا صديقٌ لى من أبناء الفرس وأخذ يذكُرنى عنده بما استطاع من جميل الكلام.

فلما أقبلنا على دور الخلافة جُزْنا بابَ السور الكبير وسلكنا ممراً مفروشاً بالحصْباء الحمراء تحيط به حدائق القصر وجنان قد اتُّخِذَ فيها أحواضٌ يتصعّد منها الماء وعليها عُمُد من الرُخام تُقِلُّ قِباباً مُغشّاة بالرسوم الموسومة بماء الذهب. ورأينا فى طَرَف هذه الجِنان صُنّاعاً يرفعون [٣] قصراً سماه أبو جعفر قصرَ الخُلْد [٤] وأضافه إلى قصر السلام [٥] الذى يسكنه فى هذه الأيام، فانتهينا من هذا الممر إلى باب القصر، وهو معقود

---

(١) ذكره الأغانى ٣ : ٥٧ والعقد الفريد ٢ : ٩٩ (٢) ابن خلكان ١ : ٣١
(٣) الأغانى وابن الاثير ٦ : ٥ (٤) القزوينى ٢١٠ (٥) الأغانى ٩ : ٤٥ والسيوطى.

تحت القبة التى كانت مزينة فى عيد الفطر، وهى عَلَم الزَّوْراء ومأثُرةُ بنى العباس، فلما جاوزناه انتهينا إلى دار مسوّرة بالعُمُد وبها مقاصير منجّدة أرضُها وحيطانها بالأرمنىّ،[1] وفى أطرافها دِهْليز ينبعث إليه الضوء من شمسيات قد اتُّخِذت فى قباب بديعة الشكل حافلةِ الزينة، فجزناه فاذا نحن فى دار أفسحَ من الدار الأولى، ولها باب عليه مسامير من الفضة والذهب،[2] وفيها كثير من العُمُد التى يوجِّه الخلفاء عنايتَهم إلى تزيينها بالرسوم والاكثار منها فيما يبنون من القصور، حتى إنى عددت فى صحن من صحون دور الخلافة سبعاً وأربعين سارية لو أنّ ثمانين غلاماً وقفوا وراءها ما رآهم من هو فى صدر الدار.

ثم انتهينا من هذا الدهليز إلى سُلَّم من الرُخام ينتهى بالراقى[3] عليه إلى مجلس الأمير، وناهيك به مجلساً قد فُرِش بالرُخام المجزَّع، وبين كل رخامة قضيبٌ من الذهب يشدُّ بعضَها إلى بعض،[4] وقد اتخذ فرشُه من الديباج والبُسُط الطبَريّة[5] عليها أبيات[6] فى مدح الأمير، وفيه كراسىّ مرصعةٌ بأصداف اللؤلؤ وعليها جماعة من الأعيان خافتون كأنّ على رءوسهم الطير،[7] وفى صدرهم الأمير جالساً فى قبة قد اتُّخِذ لها فرشٌ مبطَّن بأنواع الحرير والديباج المنسوج بالذهب والإبريسَم[8] وإذا به أسمرُ طويلُ القامة معتدل الخَلْق مليح الشكل جَعْد الشعر، بعينه اليمنى نُكْتَة بياض، وعلى

---

(١) الأغانى ٥ ١٧٣ والاتليدى ٢٢٦ (٢) الاتليدى ١٤٦ (٣) فى الأغانى ٦ : ٧٨ ما يشير الى أن قصور الخلافة طبقة فوق طبقة (٤) الأغانى ٥ : ١٦٦ (٥) المسعودى ٢ : ٨٢ والأغانى ٥ : ٥٩ و ١٢٨ (٦) الكتابة على البسط مذكورة فى الأغانى ٥ : ٨٦ (٧) الفخرى ٥ (٨) المسعودى ١ : ٢٣٤

رأسه خصيٌّ واقف بالمِظَلَّة ، وهو من الخدام المقربين إلى السلطان وأهلِ بيتـه ومن يستميلهم النـاسُ بالمال الـكثير ليذكروهم عنده أو يخاطبوه فى حاجتهم .

فلما أقبلت على المجلس غلبنى البُهْر من جلالة المهدىّ فسلّمت عليه بالامارة فردّ علىّ السلام بخفض الجناح ، وأظهر ما حسِب لى عليه من المِنّة ، وقال لى إنه يأنس بى ويحب أن يصيّر إلىّ تأديبَ ولديه موسى وهارون لِمَا بلغه عنى من العقل ، فدنوتُ من كرسيّه وقبّلت الأرض بين يديه وقلت له فى موقف الشكر على جزيل ما أولانى من النعمة إنك قد جعلت لى بهذا شرفاً لم ينله أحد قبلى من العلماء ، فقال لى أحسن الله عنا جزاءك ، فما الكثيرُ من فعلنـا بك بجزاءٍ لليسير من حقك ،[1] ثم إنه دعا أبان بنَ صدقة كاتبَه فوقف بين يديه ،[2] فقـال له اكتُب له بدارنا على دِجلة ، وأقطعه من ضياعنا الخاصة ما تقيمه غلّتُه على السعَة ، ثم أمر لأبى يوسف بخمسين ألف درهم معجّلة ،[3] وكان هذا أولَ اتصالى بولىّ العهد أصلحه الله وتولى عنى مكافأته بما هو واسع من الجميل .

فى تأديبى الأميرين وما توالى علىّ من نعمة بنى العباس

ولما اتصل هذا الخبر بالخيزُران وقد كانت فى دارها تسمى باساس[4] عادت إلى دور الخلافة فى موكب عظيم من الغِلْمان المزيّنة والخيلِ عليها القطوعُ من الديباج والحِلْيةُ الثقيلة من الفضة حتى تظهر ماعندها من الأبّهة

---

(١) الأغانى ٩ : ٣٠ (٢) المسعودى ٢ : ١٨٢ (٣) الأغانى ٣ : ٩٥
(٤) المسعودى ٢ : ١٩٦

مع تقرير موضعها من السلطان . وأقام الأمير فى ذلك اليوم مأدُبة صرف فى زخرفتها وُسْعَه ، وجلس فيها لعطاء قريش[١] وسائر الناس حتى امتلأت المدينة بأسباب المسرة والأفراح ، ثم جاءنى من لدن الأمير من ينطلق بى إلى الدار التى وهبها لى على دِجْلة ، فاذا هى مشيَّدة على أساطين رفيعة وحنايا مقوسة وقِباب مُخَرَّمة ، ولها رَوْشَن[٢] بديع الحسن يُشْرف على دِجْلة وما وراءها من الرُصافة ، وفيها من السُدول والأستار الحريرية والبُسُط الديباجية والقماقم النُحاسية والآنية المزخرفة والخزائن[٣] المجزَّعة ما ليس مثلهُ إلاّ فى أمتعة الملوك وجلسائهم مما[٤] يتكرمون به عليهم فى سبيل الهبات ، حتى لقد كانت الأوتاد التى تُدَقُّ بجانب الباب ليعلَّق فيها الداخل[٥] ما ثقُل عليه من ثيابه متخذة من العاج الأصفر وعليها رسوم منزَّلة بالذهب تمثِّل ثماراً تجتنى بالأبصار لحسنها ولفرط ما أبدع فيها المثِّل من الصناعة .

ثم جاءنى من لدُن الخيزُران خادمان للمهدىّ لم تكن نوبتهما[٦] فى ذلك اليوم بملازمة بابه ، ووضعا بين يدىّ إناءين من الذهب فى أحدهما منشور[٧] بضَيْعة فى السواد وفى الآخر مِخْنقَة فى وسطها دُرّة عن يمينها ويسارها أربعُ ياقيت وأربع زُمُرُّدات بينها كثير من شذور الذهب،[٨] ثم جاءنى وصيف آخر للمهدىّ أكرمه الله يحمل إلىّ رُقْعةً بالضَيْعة التى سبق لى بها العطاء وهى فى السواد من جوار الحِيرة يقال لها العُمَرية ،[٩]

---

(١) الأغانى ٧ : ٩ (٢) الأغانى ٥ : ١٠ (٣) الأغانى ٥ : ١٠٩
(٤) الأغانى ٥ : ٤٠ (٥) الأغانى ٤ : ٥٢ (٦) الأغانى ٣ : ١٨٤
(٧) المستطرف ١ : ٢٤٣ (٨) الأغانى ٧ : ٣٦ (٩) ذكرها الأغانى ٩ : ١٠٣

ثم بعده وصيف لأم المهدىّ وهى بنت منصور الحِمْيَرية ومعه إماء من ذهب قد انتثرت عليه اللآلئ ،[١] ثم وفد للغالية أختِه ومعهم جام[٢] فيه دنانير وخاتم من العقيق قد رُسِمت فيه أمُّ القرآن ولكن بأحرف صغيرة لا تبصرها العيون وذلك أحسَبه من محاسن الأشياء التي لا تكون إلاّ عند الملوك ، فهطلت علىّ النعمةُ غيثاً من الذهب ، وليس ذلك إلاّ لأنى وجدت منصَرَفاً فى القول لحلّ تلك اليمين .

وأخذت من ذلك اليوم فى تأديب الأميرين موسى وهرون بما أحبّ أبوهما وأوصانى به يحيى بنُ خالد وزيرُنا ، ولكن كنت إلى الصغير أميلَ منى إلى الكبير لِما وجدت من انصبابه على المطالعة[٣] واعتباره بأقوال الحكماء ، وودِدت أن يكون هو السابقَ فى الولادة لتكون له حقوق الولاية قبل أخيه لِما هو جدير به من تعمير البلاد . وتقويم العباد . لأنى رأيت الكبير صعبَ المرام شَكِس الأخلاق ، وقد عرفت ذلك ذاتَ يوم من أمر لم يتدبر معناه فلما استطلعتُه فيه رأيَه حرِد علىّ وطار طائرُه من الغيظ ، فحفِظت له ذلك وأخذت أشغَله من العلم السهل بما لا يحتاج إلى كبير مطالعة ولا إلى تكلف عناية به ، فسُرَّ لذلك وأوسعنى عما بدَر منه فى وقت الحِدّة اعتذاراً ، فعرَفت من ذلك أنه صعبُ المرام[٥] وأن من توقاه وعرَف أخلاقه دخل فى رضاه ، ومن فتح فاه فاتفق له أن يفتحه بغير ما يهواه اطّرحه وأقصاه ،[٦] وهذا كما ترى خُلُق غيرُ محمود فى أولاد الملوك الذين يتجافَوْن عن الحكماء والوُعاظ إلى تقريب من يداهنهم بالثناء على ما ليس فيهم

---

(١) ٦ : ١٣٣ (٢) ابن خلكان ٢ : ٤٥٥ (٣) الفخرى ٢٣٠
(٤) المسعودى ٢ : ٢٠٢ (٥) الأغانى ٥ : ١٦

من الخلال ، فان ذلك دليل واضح على بعد الحزم منهم وضعف البصيرة عندهم .

أمّا هرون رعاه الله فانى عرفت فيه من الرقة واللطافة وسجية الحلم ما أعظم فى عينىّ منزلته ، ولم أر فى أولاد الملوك أجملَ منه خَلْقاً وخُلُقاً ، وفيه مماثلةٌ للفضل بن يحيى بن خالد فى الصورة ، وهما فى سنّ واحدة ونشأة واحدة ، حتى إنهما تبادلا لبن الرضاعة من ثدى واحد[1] فكانت أم الفضل تُرضع هرون والخيزُران ترضع الفضلَ ، وهو أبيضُ[2] اللون واسع العينين عالى الجبهة منطوٍ على خير وصلاح وسلامة قلب ، وإذا تألم من أمر لم يستفزّه الغضب ولا يزيد على هاه هاه[3] كلمةَ غيظٍ واحدةً ، وأنا أتشرف بتأديبه[4] إلى هذا اليوم وهو سنة ثمان وخمسين بعد المائة ، وقد أتى عليه من العُمُر أربعةَ عَشَرَ عاماً أصلحه الله ووفقه إلى ما به من صلاح الملّة والدولة بمن الله وكرمه .

ولست أكتم عنك أنه لما صارت إلىّ نعمة بنى العباس تحدّث الناس

---

(١) ابن الأثير ٦ : ٣٩ وأبو الفدا ٢ : ٥ وفى الفخرى ان من بعض ما قيل فى مديح الفضل بن يحيى قولهم

كفى لك فخراً أن أكرم حرة غذتك بثدى والخليفة واحد

(٢) العقد الفريد ٣ : ٥٤ والحميس ٢ : ٣٣١ (٣) الأغانى ٥ : ٦٦ (٤) قال ن مروج الذهب انه لما أسلم المهدى ولديه الهادى والرشيد الى المؤدب أوعز اليه أن يصير يده عليهما مبسوطة وطاعته منهما واجبة وأن يقرئهما القرآن ويعرفهما الآثار . ويرويهما الأشعار . ويعلمهما السنن ويبين لهما فضل الحكماء فى مواعظهم ويبصرهما بمواقع الكلام ويمنعهما الضحك الا فى أوقاته ويأخذهما بتعظيم الأمراء من بنى هاشم ورفع مجالس القواد وألا تمر به ساعة الا وهو يغتنم فيها فائدة يفيدها إياها من غير أن يقسو عليهما فيميت ذهنهما ولا يتوسع فى مسامحتهما فيستحليا الفراغ ويألفاه وأن يقومهما ما استطاع بالقرب والملاينة فان أبياها فعليه بالشدة والغلظة .

بها كثيراً فى الحضرة ، وأحدثت فى النفوس غُصَصاً يُثيرها الإشفاق عل دولتهم من المهدىّ أن يجرىَ على سنّة أبيه فى تقديم الأغراب عليهم فى المراتب إلى أن تخلوَ منهم مناصب الدولة ، غير أن ما يخافونه من هذا الأمر لا يتعدّى إلى غير مصلحتهم الخاصة ، فانما يعظُم الاسلام بانضمامنا وجميع المسلمين إليه فى غرض واحد حتى تشتدّ صولتُه وتروجَ فيه سوق الأدب بما يوجده له العجم من فوائد العلم ومحاسن الصناعة ، ولو أن الخليفة لم يقدمنا لهذه الغاية لم يكن له مع ماسبق من خوفه من الأمويين إلاّ أن يتجافى عن العرب ويُقصيَهم عن المراتب إلى أن ترسخ فى قبائلهم دولتُه من غير حاجة إلى قتل المسلمين بالمسلمين فى فتن صعاب لا يرجو بها بلوغ أمنيتَه ، وإنما رُزِق من السياسة الحكمةَ فى تقديم الأغرابَ واستمالتهم إلى غرضه حتى يستظهر بهم على تقويم ملكه بما يُظهر من الجبروت الذى لا يلتمس فى تمكين مهابته من المخالفين له سواه ، كدأبه فى الانقطاع عن اللهو ، (١) وبعدِه من البَهْرَجة التى تُبعده عن شعائر الملة ، وتوَحُّشِه من الناس ريبةً يتهم فيها كثيراً من أهل بيته أنفسهم ، وتجافيه عن الجلاّس والنُدَماء إلاّ خلْف ستارة يضربها فيما بينه وبينهم على بعد أربعين ذراعاً (٢) إلى أمور غيرها تدل على أن مَثَلَه فى التيقظ مَثَلُ الذين يستقلّون بالملك على غير استرضاء الناس ، ثم يمرُّ بهم زمانُهم فى أشد ما يكون من الخوف والرِيبة .

---

(١) الخميس والعقد الفريد وابن الأثير ٦ : ٨ والفخرى ١٨٧

(٢) السيوطى

بقية من أخبار أبي جعفر

وقد عرَفت بترددى إلى دور الخلافة كثيراً من أخبار أبى جعفر وسياسته فوجدته ينظر[١] فى أحكام الدولة وأمور العمّال دون أن يدع لنفسه فرصة يستريح فيها من عناء الأعمال ، فاذا طلع النهار جلس فى إيوانه ونظر فى حال الأمة وعزل الوُلاة الذين يَريبه منهم مخالفتُه، ونصَب[٢] من يعرف فيه الأمانة وتظهر منه النجابةُ والفطانة مكانَهم ، لا يزال آخذاً فى ذلك بما يروم من إذلال المخالفين له إلى قُبَيْل الظهر، فاذا تناول الغداء عاد إلى النظر فى المصالح والاهتمام بأمر الجند ، فاذا صلى العصر جلس لأهل بيته وفاوض أعمامه وغيرَهم ، فاذا صلى العِشاء نظر فى كتب العُمّال مما تجمع فى النهار وشاور[٣] من يركَن إليه من سُمّاره ، تلك عادتُه من يوم وَلِىَ الخلافة .

وإن تذكر رعاك الله ما وصفته لك من تحوله فى الرسالة السالفة ثم تُضِف إلى ذلك ما أنا ذاكر لك من سهره على تدبير المملكة تتمثلْ لك صورتُه بما هو مطبوع فيها من آثار المجاهدة العظيمة التى أفنى فيها عمرَه وطال منها عناؤه ، فانّ أيامه قد انقضت بين مخالفة الأمة له والتياثِ الجند عليه حتى اقتضت الحال أن يُوجد الفُرْقةَ فيهم بين مضر وربيعة والخراسانيّة[٤] ليملك بعضَهم بالذى هو واجد على الآخرين ، فترى أنّ ما لَقِى من تصاريف الزمان هو الذى جعله على سوء ظن بالرعية ، فهو لا يركن فى أموره إلاّ إلى وزيرنا خالد أعزه الله ، ولولاه ما استوى له الملك بين

(١) ابن الأثير ٦ : ١٠ (٢) الماوردى ١٣٧ (٣) المسعودى ٢ : ١٨٤
(٤) ابن الاثير ٥ : ٢٣٩

تغلُّبِ الأكراد[١] فى فارس وظهور الخوارج فيما إليها من البُلْدان .

وقد علمتَ مما تقدم إليك من الكلام أن البرامكة يميلون بطبعهم مع أولاد علىّ عليه السلام ، فلما بعُد خالد عن الحضرة لحرب الأكراد[٢] تمادى أبو جعفر مع وزيره أبى أيوب الموريانى[٣] فى سياسته مع أهل البيت من القتل والعنف ، وجاء بالنفس الزكية وأخيه إبراهيمَ وقتلهما على خَنَقٍ كثير من أهل بيته عليه ، ولا سيما عمُّه عبدُ الله الذى غلب بنى أميّة فى الشأم ، فانه لما أحسّ منه الانحرافَ أسكنه فى قصر بنى أساسه على الملح حتى إذا دجا الليل أرسل الماء حوله فذاب الملح وسقط البيت عليه ،[٤] وهذا من الأمور التى يتناقلها الناس عنه بسوء الأُحْدوثة كما يتناقلون ذكرَ قتله لأبى مسلم داعيةِ الامامية فى خُراسان ، وكلاهما من القواد الذين غلبوا الأمويين وأقاموا ملكه فى فارس فالعراق فخُراسان فما بين المسجد الأقصى إلى البلد الحرام . ولقد فاوضت أبا يوسف يوماً فى هذا الشأن فحدثنى عن جبروت أبى جعفر وأخبرنى أن سَلامة أمَّه لمّا حملت به رأت فى منامها كأنّ سبُعاً زأر فأقبلت عليه السباع من كل ناحية ، وكلما انتهى إليه سبُع سجد له[٥] فصحّ تعبيرُ منامها بما يراد من معنى الملك والظَفَر

ولقد دخلت على أبى جعفر مرة واحدة بعد رجوعه من الحِيرة وهى المدينة التى يقصِدها[٦] حين يشتدُّ عليه الحر فى الوَرْاء ، إذ ليس فى جوارها

---

(١) ابن خلكان ١ : ١٤٩ (٢) ابن الأثير ٥ : ٢٣٦ و ٦ : ٦

(٣) المسعودى ٢ : ١٨٢ (٤) الفخرى ١٩٨ وابن الاثير ٥ : ٢٣٥ والمستطرف ١ : ٩٦ (٥) المسعودى (٦) وفى ابن الاثير ٦ : ٥٥ أن الرشيد سكنها أيضاً برهة من الزمان

ما يصلح لسكنى الملوك غيرُها [١] فلما أذِن للناس بالدخول عليه صحِبت لسانَ الشريعة أبا يوسف فأصبناه فى مجلس الأمراء وفيهم شاعر مقرب إليه يقال له أبو دُلامة ، وهو يدنيه ويضحك منه على بيتين من الشعر [٢] قالهما فى استهجان الزِىّ الذى عمّ استعمالُه فى لباس الخواص والعوام كما تقدم ، كأنّهم فى كتابة الآية بين أكتافهم ينبُذون كتاب الله وراء ظهورهم . [٣] فلما أدّينا فروضَ السلام أمرنا بالجلوس ، وقال لى بعد أن قمنا بالواجب من إجلاله إنى رأيتكم « يريد الفُرْس » أهلَ وفاء [٤] وفَطانة فوليتكم المناصب فى دولتنا ، ولم أر بنى مَرْوان قد انتبهوا لذلك ولا تكلفوا العناية فى تجميل الدولة بانتفاعهم من آداب العجم ، فقد كان عبد الملك جباراً لا يبالى بما يصنع ، وكان سليمان همُّه بطنُه ، ثم أفضى أمرُهم إلى أولادهم المُتْرَفين فكان همُّهم الشهوات وركوبَ الملاذ من معاصى الله عز وجل جهلا منهم باستدراجه وأمْناً منهم لِمكْرِه مع اطّراحهم صيانةَ الخلافة واستخفافهم بحق الرياسة .

فلما ذكر ذلك عنهم جعل يضرب الأرض بِمخْصَرة كانت فى يده ، أوقع على بنى أمية ممن حضر المجلس قذفٌ شديد يرومون به موافقةَ فسلطان ، وقالوا إنهم كانوا يعاقرون الخمر ويظلمون العباد حقوقَهم ويستحلّون الخذ أموالهم بغير استحقاق ويكلفون أهل القرى إذا خرجوا إلى الصيد

(١) الأغانى ٢ : ١٢٥ (٢) البيتان هما قوله

وكنا نرجى من امام زيادة فجاد بطول زاده فى القلانس

تراها على هام الرجال كأنها دنان يهود جللت بالبرانس

(٣) العقد الفريد ١ : ٩٨ (٤) ابن الاثير ٦ : ١٢

ما لا طاقةَ لهم به من الضرب والاهانة ، ولا يقنعهم ذلك حتى يحطّموا زرعهم فى طلب دُرّاج قيمتُه نصفُ درهم ، ثم انتقل بعضهم من هذا القَذْف إلى أن يحثّ الخليفةَ على تتبع الهاربين منهم فى جميع الوجوه ، وسمعت من أنشده هذين البيتين المشهورين الذين قالهما سَدِيف لأبى العباس لما تمّ له الغَلَب عليهم .

لا يغرنْك ما ترى من رجال إنّ تحت الضلوع داء دَوِيّا
فضع السيف وارفع السوطَ حتى لا ترى فوق ظهرها أمويّا

فامتلأ وجه الخليفة غضباً وقال لعمرى إنّ الأمويين أهل مظالم قد غمَطوا النعمة فهوَى نجمُهم وثُلَّ عرشُهم ولله فيهم[1] نقمةٌ سأتتبعها فيهم حيث لَقِيتُ منهم عاتياً ، فعجبت من مظاهرته بهذا الكلام وبين يديه كثير من الذين يتقربون إليه بالتدليس والمِحال . وأنا لا أقول إن الأمويين منزَّهون عن هذا الطعن ولا عن أشدَّ منه ولكنى أرى أنهم لو لم يكونوا حقيقين بمثله لرماهم كثير من هؤلاء الجلاّس بأنكى منه تقرباً من السلطان فيما يحب من القدح فى أعدائه ، وكان ذلك أولَ مالَقِيت أبا جعفر ، ثم لم أره بعـــد ذلك لأنه ركِب[2] إلى مواطن الحج المباركة شرَّفها الله بكرمه وإحسانه .

---

(١) ابن الاثير ٥ : ١٦٧ والقزوينى ١٦ (٢) ابن الأثير ٦ : ١٦

فى ركوب الخليفة إلى الحج

كان لخروج الخليفة الى الموسم موكب لم يُرَ أحفلُ منه فى مواكب الملوك ، فقد أقبل أهل المدينة الى باب الكوفة[١] حيث اجتمع من النافرين إلى الحج الشريف من العراقيين والخُراسانيين والفُرْس وغيرهم ما لا يُحْصى عددَه إلاّ الله ، وكلُّهم مجهِّز ابلَه وكُسوته وقِرَبه وخُرْثيَّه وطعامه وهو الأخبصة اليابسة والأقراص المعجونة باللبن والسكر والكعك المنضَّد والفواكه اليابسة وغيرُها من طعام الحاج ،[٢] ومعهم قِطْعة من الجند تحوطهم[٣] فى نزولهم وارتحالهم ، وفى طليعتهم هوادجُ تظلّلها قِباب من الديباج المطرَّز بالذهب ،[٤] وفيها يقيم الأمير المولَّى على الحُجاج . وله فى إمارته النظرُ فى أمور عشرة وهى أن يجمعَ الحُجاج فى مسيرهم ونزولهم حتى لا يتفرقوا فيخافَ عليهم التوانى . وأن يرتبهم فى المسير ليعرف كلّ منزله ويألَف مكانه اذا أناخوا فى بلد . وأن يرفُق بهم فى المسير حتى لا يعجزَ عنه ضعيفهم ولا يضلَّ عنه منقطِعهم . وأن يسلُك بهم أوضح الطرق وأخصبها . ويتجافى أوعرها وأجدَبها . وأن يرتاد لهم المياه إذا قلّت والمراعىَ إذا انقطعت ، وأن يحرسهم إذا نزلوا ويحوطهم إذا رحلوا . وأن يمنع عنهم من يصدّهم عن المسير بجهاد لا بمال . وأن يصلح بين المتشاجرين لأنهم يكونون تحت ولايته كأهل المدينة تحت ولاية رئيسهم . وأن يؤدب خائنهم ويلزم الناس آدابهم . وأن يراعى فوات الوقت فلا يُخْشَى عليهم ضيقُهُ

---

(١) هو من أبواب بغداد (٢) المسعودى ٢ : ٥٦ (٣) الأغانى ٩ : ٦٤
(٤) أبو الفداء ١ : ١٥٧

لأنهم إذا لم يصلوا عَرَفة فى يوم عَرَفة ما بين زوال الشمس إلى طلوع الفجر فقد فاتهم الحج[١]

ولما صارت الشمس على ارتفاع قامة وقد غَصَّت بالناس المواقفُ وضاقت بهم الساحات ضُرِب البُوق إيذاناً بركوب الخليفة ، ثم لم يلبَث أن أقبل مرتفعاً على فيل أبيض قد استرسلت عليه الفضة[٢] فى الحلية الثقيلة ، وهو جالس فى هَوْدَج[٣] منزَّل بالأصداف اللامعة ، وعلى القبة أستار من الديباج يتخللها رسوم من الذهب ، وفى يده قضيب الخلافة وفى الأخرى الخاتَم ، وعليه جُبَّة وَشْى[٤] من فوقها بُرْدَة خضراء للنبى صلى الله عليه وسلم وهى غيرُ البردة التى كانت لملوك بنى أمية يُلقونها على أكتافهم فى جلوسهم وركوبهم ، لأنها فُقِدت بفِقدان الخلافة منهم ، وكان قد اشتراها معاوية من آل زهير بن أبى سُلْمى بأربعين ألف درهم ،[٥] وإنما هذه البُرْدة هى التى أعطاها النبى صلى الله عليه وسلم لأهل الأبُلَّة لتبقى عندهم بركة ، فاشتراها أبو جعفر بثلثمائة دينار[٦] واتخذها فى شعار الخلافة موضعَ البردة التى كانت عند الأمويين . وأمَّا الفيَلة فانه لم يسبق أحدٌ من ملوك العرب إلى اتخاذها فى المواكب ، وقد أخبرنى نُصَيْر ذلك الخادمُ الذى مضى فى هذه الرسالة ذكرُه أنه إنما اتخذها مركَباً له لِما كان من تعظيم الملوك السالفة إياها واقتنائهم لها وإعدادها للحروب والزينة فى الأعياد وغيرها ، إذ كانت أوطأ مراكِب الملوك وأمهدَها[٧] . وكان يصحَب أبا جعفر جماعةٌ من

---

(١) الماوردى ١٨٧ (٢) المقدمة ١٤ (٣) الكشكول (٤) كذ فى العقد الفريد ٣ : ١٥٦ (٥) أبو الفداء ١ : ١٥٦ (٦) السيوطى (٧) المسعودى ١ : ١٨٥

الأمراء ورجالِ بيت الخلافة ، ووراءهم الأبلُ التى يَظَّعِنُها حريمُه وأهلُ بيته وفيهم موسى بن المهدىّ حاجاً ، [١] ومعهم حَرَس خاص بهم يحملون الراياتِ السود .

فلما وصل موكبهم إلى موقف الحُجاج ارتفعت أصواتهم بالدعاء وعلا ضجيجهم بالتكبير والتهليل فكان الواقف يستشعر من عزة الأسلام ما لا يخالج النفس أعظمُ منه ، إذ ليس من فروض العبادة ما تظهر فيه أُبهة الدولة غيرَ حج البيت الحرام ، فلما وقف الأمراء والعظماء إلى وَداع الخليفة أوصاهم بالسهر على الرعية ، [٢] وأن يسألوا الله له النعمة ويوفِّقه ويُلْهِمَه الرأفةَ بهم . ثم إنه عزم على ولىّ العهد أن يصحبه إلى قصر عَبْدَوَيهِ على مسيرة يومين [٣] من الحضرة لتتم له الخلوة به على انفراد ، إذ كان يحسَب من هذا الموسم إتيانَ ما لامردَّ له ، وقد كان يرَى فى منامه كأنّ نجوماً تهوى من السماء [٤] فيتشاءم من ذلك . فلما نُفِخَ فى البوق إيذاناً بالنفير زحف الحُجاج كالبحر المتلاطم الأباب . كأنّ سفنه الرِّكاب . وشُرُعَها الظُلَلُ المرفوعة والقباب . وفى مقدمتهم هَوْدَج الخليفة قد لمع ذهبُه كأن الشمس ترسل إلى الناس نوراً من جلال الخلافة .

ولمّا كان بعد ذلك عاد المهدىُّ إلى الحضرة وشرع فى مباشرة الأحكام على الوجه الذى يريده أبوه ، حتى صرنا ونحن اليومَ فى ولايته أشبهَ بنا فى ولاية أبيه إلاّ فيما يصير إلينا من العطاء الذى لم نتعوده من أبى جعفر ، وأمّا ما سوى ذلك من أمور السياسة فلم يكن له إلاّ أن يقتفىَ فيها أثرَه ،

---

(١) ابن الأثير ٦ : ١٣ (٢) السيوطى (٣) أبو الفرج ٢٢٠
(٤) ابن الأثير ٦ : ٦

وقد أوصاه وهو يودّعه فى قصر عَبْدَويهِ الوصيةَ التى هى من أحسن ما أوصى الملوكُ به أولادَهم فى السياسة ، بدأ فيها بتحريضه[١] على سَكَن الزَّوْراء وألاّ يستبدل بها غيرها ، وأن يُظهر كرامة أهل بيته[٢] ويُحسن إلى مواليه ويستكثر منهم ولا سيما أهلُ خُراسان اذ كانوا شيعتَهم وأنصارَهم ومن لا تخرج محبتهم من قلوبهم[٣] وألاّ يستعين بأحد من بنى سُلَيْم (خوفاً من ميلهم مع أهل البيت) ، وأن يحفظ النبى صلى الله عليه وسلم فى أمّته ويلزم حدود الله والآدميين ويعِفّ عن البغى الذى لا حاجة به إليه مع ما خلّفه له من المال ، وأن يشحَن الثغور ويضبط الأطراف ويُعِدّ الكُراع والرجال ويسيء الظن بالعُمّال ، وألاّ يُدخل النساء فى أمره[٤] ولا ينام إلاّ وهو مستيقظ إلى آخر ما أطال به فى هذه الوصية التى ذهبت مثلا بين وصايا الملوك .

فى ذكر من لقيته من الشعراء

يحسُن بى فى ختام هذه الرسالة ، أن أذكر لك عن الشعراء الذين زهت بهم دولةُ أبى جعفر ما ورد على الخاطر الفاتر ، ولكن بإيجاز يدلُّ على موضعهم من الإجادة فى مذاهبهم ، دون إطناب ينتهى إلى مالا تَسَعه الصحف من ذكر أبياتهم ونوادرهم . فأبدأ منهم بذكر بَشّار بن بُرْد البصرى وهو ضرير قد لقيته فى مجالس البرامكة[٥] لأول قدومى إلى الزَّوْراء وكان خالد أعزه الله قد أحب أن يُطلق علىّ اسمَ الزائر ويُبطل عنى اسم

---

(١) ابن الاثير ٦ : ٧ وأبو الفداء ٢ : ٧ (٢) أبو الفرج ٢٢٠ (٣) العقد الفريد (٤) الفخرى ٤٨ (٥) الأغانى ٣ : ٣٦

السائل الذى كان يُنعَت به الغرباء فى ذلك الوقت[1] لقوله لى إنى والله لأحب اسم السائل إلا لطلاّب الاحسان، وأرفع قدر الكريم عن أن يُسَمَّى به أمثال هؤلاء المؤمّلين، لأن فيهم الأحرارَ والأشرافَ ومن لعله خيرٌ ممن يقصِد وأفضلُ أدباً ولكنا نسميهم الزوارَ، فوجد بشار لنفسه نصيباً من كلام الوزير فأطلق لسانه فى الانشاد بما دل على سرعة خاطره إلى النظم وسرعة تصرفه فى فنون الشعر.

وقد رَوَيْتُ لبشار هذا الشاعر نحواً من مائة قصيدة ورأيت له فى أكثرها ابتداء يرفعه إلى مساماة المقدمين من شعراء العرب، فلقد سمعت من لا أُحْصِى من الرواة يقولون أحسنُ الناس ابتداء فى الجاهلية امرؤ القَيْس حيث يقول (ألا عِمْ صباحاً أيها الطللُ البالى) وحيث يقول (قفا نبك من ذِكرى حبيب ومنزل) وفى الإسلام القَطامىُّ حيث يقول (إنّا محيّوك فاسلم أيها الطَّلَلُ) ومن المسلمين بشارٌ حيث يقول.

أبَى طلل بالجِزْعِ أن يتكلما وماذا عليه لو أجاب متيما
وبالجِزع آثارٌ بقين وباللوى ملاعبُ لا يُعْرفن الا توهما

ووجدت له من جمال التشبيه مايعجِز البُصَرَاء عن الاتيان بأفضل منه وفى قوله.

كأنّ مُثار النقع فوق رءوسنا وأسيافَنا ليل تَهاوَى كواكبه

سموٌّ لم يعلُ عليه أحد من المتقدمين ولا المتأخرين، وهذا من الغريب الذى لم يُسمع بمثله عن أحد من العميان لأن قولهم منحصر فى الزهد والمديح والهجاء وما يتصرفون به من أبوابها، بخلاف هذا الشاعر فانه يتوسع منها

(١) الأغانى ٣: ٣٦ الوطواط ٢٤٩ والفخرى ١٨٥

إلى سائر المذاهب من غير أن يقع فى الانحطاط الذى لا يُؤْمَن على من يُدخل نفسه فيما هو غريب عنه، وكان المتبادر إلى العقل أن يكون بعيداً عن تصور الحسن ولكنه أغزل الشعراء[1] حيث يقول .

أنا واللهِ أشتهى سحرَ عينـــيكِ وأخشى مصارعَ العشاق

وهذا أحسَبه من المواهب الطبيعية والمَلَكات النفسانية، ولذلك أقدمه على جميع الشعراء من هذا الوجه الذى يُجِلّه عن التكلف ولا أجد فيه من انتقادِ عيب[2] به شعرُه الا استرسالَه فى الهجاء واختلاقَه بعضاً من الألفاظ التى يُحتاج إليها لقيام أبياته على القافية من غير أن تَرِدَ فى لغات العرب .

ولقيت من الشعراء المقدمين مَرْوانَ بنَ أبى حَفْصَة وهو منقطع فى شعره إلى مديح مَعْنِ بنِ زائدة[3] لأنه كفاه مؤُنةَ الاستعطاء من غيره، ولمّا أتى فى بعض مديحه له على ذكر بلائه فى حرب الرَّوَانْدِيّة بقوله .

مازلت يوم الهاشميـة مُعْلنا بالسيف دونَ خليفةِ الرحمن

فمنعت حَوْزَتَه وكنتَ وقاءه من وقع كل مُهَنَّدٍ وسنان

أعطاه مائة ألف درهم وذلك أعظم ما أعطى الملوك من الجوائز، حتى إن أبا جعفر لمَّا علِم بذلك أكبره وقال فى سبيل التعجب من سماحة معن « لله دَرُّه من أعرابى ما أهونَ عليه ما يعزُّ على الرجال وأهل الحُرَم »[4]

وقد انتهت بلاغة هذا الشاعر إلى القصيدة اللامية التى يقول فيها مادحاً هذا الأمير .

---

(١) الأغانى ٦ : ٤٩ وابن خلكان ١ : ١٢٥ (٢) الأغانى ٣ : ٤١ و ٥٣ و ٧٣ وابن خلكان ٢ : ٢٥٢ وابن الاثير ٦ : ٣٧ (٣) الأغانى ٩ : ٤٤

(٤) المسعودى ٢ : ١٨٣ والأغانى ٩ : ٤٤ وابن خلكان ٢ : ١٦٠ والمستطرف ١ : ٧٣

بنو مطر يوم اللقـــاء كأنهم أسُود لهم فى غيل خفّان أشبُلُ
هم يمنعون الجار حتى كأنما لجارِهمُ بين السِّماكَيْنِ منزل

إلى أن يقول .

تجنّب لا فى القول حتى كأنه حرامٌ عليه قولُ لا حين يُسْأل
تشابه يوماه علينا فاشكلا فما نحن ندرى أىُّ يَوْمَيْه أفضل
أيومُ نداه الغَمْر أم يومُ بأسه وما منهما الا أغرُّ محجَّل

ولكنى سمعت من يقول إنه رفعها بعد حَوْل كامل[1] فقالها فى أربعة أشهر وانتخلها فى أربعة وعرضها فى أربعة فجاءت كأنها السحر الحلال[2] يعجز عن مثلها الشعراء ، ولكن هذا يدل على أن علمه أكثرُ من عقله وأن الشعر عنده صناعة ينال نفسه منها عناء شديد، وانما يُحَبُّ من الشعراء سرعةُ الخاطر إلى النظم كمثل ما نعلم عن العرب من قولهم الشعر ارتجالا فى المجالس والأسواق. ومن كلام مروان :

طرقتكَ زائرةٌ فحَىَّ خيالَها بيضاء تخلط بالجمال دلالَها[3]
قادت فؤادك فاستقاد ومثلُها قاد القلوب إلى الصِّبا فأمالها

وممن لقيته من شعراء هذه الدولة أبو اسحق اسماعيل « من قبيلة عَنْزَة[4] » ويعرف بأبى العتاهية وهو من المطبوعين المجيدين يقول المائة والمائة والخمسين بيتاً فى اليوم الواحد ، حتى ليس إلى الاحاطة بجميع شعره من سبيل ، وله كلام لم يسبق إليه أحد[5] كقوله .

---

(١) الأغانى ٩ : ٤ (٢) ابن خلكان ٢ : ١٣ (٣) فى العقد الفريد « بيضاء تنشر بالحياء دلالها » (٤) الأغانى ٣ : ١٢٧ (٥) الأغانى والعقد الفريد ١ : ٣٧٤

الناس فى غفَلاتهم ورحَى المنية تطحَن

وله من بعض كلام[1]

لا تأمنِ الدنيا على غَدْرها كم غدرت قبلُ بأمثالكا

أجمعتِ الناس على ذمها وما أرى منهم لها تاركا

وهو يأخذ فى ذلك على أسلوب سهل يروم أن تفهمه العامة وترضى به الخاصة وإن كان منحطاً عن لغة الأولين فى فصاحة الألفاظ، وتصرُّفه فى الشعر مقصور على وصف الآخرة[2] ولم أحفظ له من المديح غير بيتين قالهما فى عمرو بن العلاء.

إنَّ المطايا تشتكيك لأنها قطعت إليك بَسابسا ورمالا

فاذا وردن بنا وردن خفائفا واذا صدرن بنا صدرن ثِقالا

وهذا أحسن ما يقال فى امتداح الكريم، إذ لا يخفى أن وراءه من المديح ما يترك البلاد والعباد والحيواناتِ العُجْم ناطقةً بما له من الجميل.

ولقيت منهم أبا دُلامة زَنْد بن الجَوْن وهو من الشعراء المجيدين لكنه قد أضاع شعره فى استعطاء أبى جعفر وهو بمكانه من الامساك كما علمت وقد قال فى الثناء عليه.

لو كان يقعُد فوق الشمس من كرم قومٌ لقيل اقعدوا يا آل عباس

ثم ارتقُوا فى شعاع الشمس كلُّكم إلى السماء فأنتم اكرم الناس

وهذا كلام يسمو به إلى جمال الشعر ويملك القول بما أودعه من وصف السعادة التى صوّرها محفوفة بالنور ولكن قد ضاع تأثيره فى النفوس ببعد

(١) المسعودى ٢ : ٢١٨ : (٢) الأغانى ٣ : ١٢٦

الممدوح عن محاسن الكرم . وقد وجدت أبيات هذه حلاّة بالخلاعة كما أنى وجدته يتوسع فيها إلى المجون[1] وكثيراً ما كنت ألقاه فى مجالس المَهالبة يلتمس نصيبه من عطائهم بما يتصرف به من الهزل والمزاح .

ومن الشعراء المجيدين محمد بن المَوْلى الأعرابىّ لقيته فى مجالس المهالبة مرة واحدة وقد قصدهم من البادية وقال فيهم المدائح الرنّانة فأجزلوا عطيته من المال وقد حفِظْت له من جملة أبيات يقولها فى مديح رَوْح بن حاتم من أمرائهم[2] .

إنى لأرجو إن لقيتك سالما ألاّ أعالج بعدك الأسفارا

وكان روح عند ما أنشده إياه قد غلبته الأريحية فأمر بافراغ المال عليه حتى تَثَقَّل به فقلت للأمير ما أنت إلا من يقول فيه زُهَيْر .

تراه إذا ما جئته متهللا كأنك تُعطيه الذى أنت سائلُه

فقال والله لَأَنْ أُعْطىَ أحبُّ إلىّ من أن أُمْدَح . ولابن المولى كلام يقرُب أن يكون مثل أقوال الجاهليين ، لِمُقامه فى مواضعهم من البادية بعيداً عن حضارة الأمصار ومن شعره فى النسيب .

أحِنُّ إلى ليلى وقد شطَّت النوى بليلى كما حنّ اليراع المُثَقَّبُ
تقربتُ ليلى كى تُثِيبَ فزادنى بِعاداً على بعدٍ إليها التقرب

(وقوله)

وأبكى فلا ليلى بكت من صبابة إلىَّ ولا ليلى لذى الوُد تبذُلُ

وكان الحَسَنُ بن زَيْد رضى الله عنه ، وهو عامل على المدينة[3] ، قد

---

(١) ابن خلكان ١ : ٢٧١ والأغانى ٩ : ١٣٢ والمستطرف ٢ : ٤ والشريشى ٢ : ٢٦ (٢) الأغانى ٣ : ٩٠ (٣) ابن الأثير ٥ : ٢٤٣

دعاه وأغلظَ له ، وقال أتُشَبِّبُ فى حَرَم المسلمين وتُنشد ذلك فى المحافل والمساجد ظاهراً ؟ فقال امرأتى طالق ثلاثاً إنْ كانت ليلى إلاّ قوسى هذه ذكرتُها على سبيل التشبيب ، لأن القريض لا يحسُن إلاّ بالنسيب . على أنى وجدت شعره إلى فصاحة البداوة أقربَ منه إلى حلاوة الحضارة وفى قوله .

سلا دار ليلى هل تُبِينُ فتنطِق ... وأنَّى تردّ القولَ بَيْداءُ سَمْلَقُ
عفتها الرياح الدامسات مع البلى ... بأذيالها والرائح المتعبِّق
بكل شآبيبٍ من الماء خلْفَها ... شآبيبُ ماء مُزنُها مُتَأَلِّقُ

مايبعد تناوله على سكان الأمصار الذين ينقطع عهدهم بمحاضرة أهل البادية ، وانما يُدْخلون فى لسانهم كلام السُّوقة [1] وألفاظ الأعاجم الذين يخالطونهم فى أسفارهم وتجاراتهم ، حتى تُصبح لغتهم فى أشد المباينة للسان العرب .

وممن لقيته من الشعراء المجيدين السيد الحِمْيَرىُّ ، وهو من الواقفية القائلين بالامام المنتظر ، [2] يأتى فى شعره على غرضه فى السياسة ، ويُفرط فى سبّ أصحاب النبى [3] صلى الله عليه وسلم ممن كان يرغب عن آل البيت ، وربما وقع عليه من الناس تجافٍ عن شعره من هذا الجنس ، إلاّ أنه ليس لأحد من الشعراء ماله من عذوبة الألفاظ ، وجَوْدَة السبك ، ورَوْنَق الشعر وطَلاوته . وقد جمعنى وإياه إلى هذا اليوم أكثر من مجلس ، ووجدته حسن الكلام جميل الخطاب ، إذا تحدث بين القوم أعطى

---

(١) يقول فى الأغانى ٣ : ١٧٣ أن الألفاظ السوقية لاتمنع أن تكون القصيدة جيدة (٢) العقد الفريد ١ : ٢٦٦ والمقدمة ١٧٣ وذكره المسعودى ٢ : ٨٠ وسمى شيعته بالكيسانية (٣) أبو الفداء ٢ : ١٥

كل رجل فى مجلسه نصيبه من حديثه ،[١] وله فى النسيب كلام رقيق فمن ذلك قولهُ :

ولمّا رأتنى خَشْيَةَ البَيْنِ مُوجَعاً أكَفْكِفُ منى أدمُعا بيضُها درر
أشارت بأطراف الىّ ودمعُها كنظم مُجانٍ خانه السلكُ فانتثر

ومن الشعراء المقدَّمين أشجعُ بنُ عمرو السُّلَمِىُّ ،[٢] وقد نزل الشعرُ فى صدره مَوْهِبةً من الله ، فانتهضت به قَيْسٌ لذلك ، إذ لم يكن بها فى الاسلام شاعرقبله ، وإنما كان الشعر فى ربيعةَ واليمنِ ، فلما نجم أشجع وقال الشعر افتخرت به قيسٌ على العرب ،[٣] ومما أستحسنه من نظمه سهولةُ القول التى لا يَعانِى إلى البراعة فيها تكلفاً ، وقد حفِظتُ له فى مديح ولىٍّ العهد بيتين من جيد الشعر وهما قوله[٤]

وعلى عدوِّكَ يا ابن عم محمد رَصَدانِ ضوءُ الصبحِ والإظلامُ
فاذا تنبّه رُعْتَهُ وإذا غفا سُلَّت عليه سيوفَكَ الأحلامُ

هذا ما أذكره عن شعراء هذه الدولة بوجه الاختصار ، وقد رأيتهم يتسابقون إلى ابتكار المعانى الحِسان من غير أن ينتحلوا مذاهب من تقدمهم فى عصور الجاهلية ، إلاّ فيما كان أقلَّ من النادر[٥] ، ولو رأينا لهم ماسُبقوا إليه ما صحَّ أن نتهمَهم بالانتحال ، لأن العقول قد تتوافق وتتوارد ، وان كان المتقدمون من الجاهلية أشرفَ منهم لفظاً فانّهم لألطف منهم صُنْعاً وأكثر من المعانى حظاً . وهؤلاء هم أشعر العرب قد اجتمعوا فى الزَّوْراء

---

(١) الأغانى ٧ : ٣ (٢) الأغانى ١٥ : ١٠٨ (٣) الأغانى ١٧ : ٣٠
(٤) البيتان قيلا فى هرون الرشيد (٥) أنظر ابن خلكان ١ : ١٠٢ والأغانى ٣ : ٤٩ و ١٤٨ و ٥ : ١٧٨ والحصرى ٢ : ١٦٧

إلاّ ابن هَرْمَةَ وسَلْماً الخاسر، وكلاهما شاعر مُجيد أيضاً إلاّ أن أبياتهما لم تصل إليّ ، فلم أعلّق أخبارَهما فى هذا الكتاب .

وقد كتبت هذه الرسالة فى مُنْتَصَفِ ذى الحِجَّة من السنة الثانية والخمسين بعد المائة من هجرة نبينا المكرم ، والله المسئولُ فى توفيقنا إلى السَّداد ، وهدايتنا إلى الرشاد : بمنه تعالى وكرمه .

الرسالة الرابعة

جلوس المهدىّ على دست الخلافة

أفتتحُ هذه الرسالة إليك بذكر جلوس المهدىّ على دَسْت الخلافة عند وصول الخبر بوفاة أبى جعفرْ ، وقد كان لذلك يوم عظيم فى الحضرة والأسلام كله ، لأن العقلاء من أهل السياسة كانوا يَرَوْنَ زوال الخلافة عن وَلَدِ العباس إلى الأئمة من أهل البيت وتعذرَ مصيرها إلى المهدىّ، والمشايخُ من أهل هاشم حاضرون ، فجرَى الأمر على خلاف المظنون بحيلة علِمتها من البرامكة سراً لم تنكشف للناس إلى هذا اليوم . وذلك أنّه لمّا أودَى أبو جعفر — غفر الله له — كتم الربيع موتَه إلى الصباح عمن كان معه فى الحج ، واستدعى عيسى بنَ علىّ عمّه وعيسى بنَ موسى ولىَّ العهد بعد المهدىّ وجماعةً من القوّاد والأمراء ، وتقدم إليهم بأمره — فيما كان يزعُم — أنْ يجددوا البَيْعَةَ لابنه من غير أن يُعْلِمَهم بوفاته ، فلم يتجرّأ أحد على مخالفة الأمر، ظنّاً منهم أنه صادر من السلطان . ولو أنهم علِموا بوفاته